**الأستاذ المسؤول عن المقياس : بن عيسى خيرة .**

**مقياس : مدارس فلسفية يونانية .**

**المستوى السنة الثانية : LMD s3**

**المحاضرة الخامسة : المدرسة الرواقية (le phythagorisme)**

**تمهيد عام حول الفلسفة الهلنيستية:**

توافق بداية المرحلة الهلنستيةHellénistique موت الإسكندر الأكبر عام323ق.م وضعف الإمبراطورية اليونانية التي تحولت إلى دولة صغيرة داخل الإمبراطورية الرومانية الكبرى،هذه الأخيرة التي لم تتفوق عليها عسكريا فقط بل حتى ثقافيا،وهذا الوضع الذي آلت إليه اليونان كان سببا في ظهور نزعات فردية،إذ"كان من الطبيعي أن تظهر المواطنة العالمية بمثلها الأعلى للمواطن العالمي كما نجده في الفلسفة الرواقية،بل لابد أن يظهر كذلك إلى النور المذهب الفردي"[[1]](#footnote-2)والرغبة الشديدة في العيش بعيدا عن آلام الحياة،هذا وكان اندماج الفرد في الكل سببا في توجه الفلسفة نحو النزعة العملية والبحث عن الخلاص والمثل الأخلاقية وتراجع النظر في المسائل الميتافيزيقية التي لم تكن في تلك الفترة مجدية و مفيدة لفرد يعيش نوعا من الضياع وسط مجتمع كبير وجديد،ولم يهتم فلاسفة هذه المرحلة كذلك بالمسائل الفيزيقية لأنها هي الأخرى لا تحمل بعدا أخلاقيا عمليا شافيا للفرد،وكل نظر في هذه الجوانب السابقة كان فقط من حيث مساهمتها في الحياة الفردية العملية الأخلاقية.

وإضافة إلى هذه الدوافع يرى"فريديريك كوبلسون"في كتابه تاريخ الفلسفة اليونانية أن العامل الذي ساهم في نضج الاهتمام بالجانب الأخلاقي العملي هو طبيعة التفكير عند الرومانيين الذي كان متجها نحو الجانب العملي،وكان دور الفلسفة حينها توجيهيا تربويا بحث أنها سدت فراغ الحاجة إلى الدين،كما تزامن هذا الوضع مع دخول ديانات الشرق القديمة وانتشارها داخل الإمبراطورية الرومانية التي مثلت للفرد في ذلك الوقت التوافق الأخلاقي والروحي الذي بلغ قمته مع الأفلاطونية المحدثة التي مثلت أعلى مستوى من الامتزاج بين الفلسفة والدين فكانت محاولة:"لعمل مركب شامل،الوجود الأخلاقي يتبع فيه الوجود الديني لكن دون أن يفقد أهميته" [[2]](#footnote-3).

كما لا يجب أن نهمل في هذه الفترة نزعة الشك التي كانت تؤسس لاستحالة المعرفة،وهي في الأصل كانت سابقة على المدرسة الأفلاطونية المحدثة.وفي ما يلي عرض لهذه المدارس اليونانية حسب الترتيب الزمني لها.

**2/الـــــــرواقية:Stoïcisme**

بداية يجب أن نميز في كلامنا عن الرواقية بين المبكرة وهي التي أسسها زينونZénon الرواقي،وبين الأتباع الذين جاؤوا فيما بعد ومثلوا الرواقية المتوسطة والمتأخرة،وهي كلها تمثل مراحل وتاريخ تطور الفلسفة الرواقية في عمومها،ونحن هنا سنركز جل اهتمامنا في الكلام عن الرواقية الأم.

**أ-مؤسس المدرسة:**

زيتون الرواقي Zénon de Cittium هو مؤسس المدرسة الرواقية،يقال أنه من أصل فينيقي ولد في كيتوم Cittium حوالي سنة(335ق.م/ 332ق.م)،عرف بحياة الزهد والتقشف والفضيلة،كان تلميذا لأقريطس الكلبي،ويقال أنه كان شديد الإعجاب بشخص سقراط أسس مدرسته حوالي 300ق.م والتي استمدت اسمها من الرواق لأنه كان يلقي فيه دروسه.

يرجح أنه توفي حوالي( 260ق.م/263ق.م) له مؤلفات عديدة أهمها في الواجب،في العالم كله،في العواطف،في قراءة الشعر،لكنها فقدت ولم تبقى منها سوى شذرات.

بداية يمكن الكلام عن الفلسفة الرواقية بالنظر في ثلاث مباحث أساسية هي:الأخلاق،الفيزيقا والمنطق،وفيما يلي سنحاول إبراز ذالك.

**ب- الأخلاق الرواقية:**

تقوم في عمومها على مدى تحقيق التوافق مع الطبيعة باعتبارها جزء من الطبيعة الكلية للكون،أما في معنى الفضيلة فإن الرواقية سيكون لها تصور جديد يكمن في كونها قائمة لذاتها،فلا تمارس لغاية مرغوبة أو نفور من ألم،بل كمبدأ،ويكفي أن يتصف الإنسان بفضيلة واحدة فقط ليكسب كل الفضائل الأخرى ،وتكون بذلك الفضائل الأساسية عند الرواقية هي:"الاستبصار الأخلاقي والشجاعة وضبط النفس والعفة والاعتدال والعدالة وهذه الفضائل متضامنة معا،بمعنى أن من يملك إحداها يملكها كلها"[[3]](#footnote-4).

وبما أن الفضيلة هي ما توافق مع العقل فإن الرواقية في مذهبها لا تولي أي أهمية للانفعالات الإنسانية لأن هذه الأخيرة هي لا عقلية،وما كان كذلك فهو غير موافق للطبيعة،لذلك وجب محاربة الانفعالات والابتعاد عنها نهائيا،وليست هناك دعوة إلى توجيهها أو تربية النفس من ناحيتها،فالإنسان في محاربته للانفعالات وتهميشها يتمكن من تحقيق سيادة العقل والكمال الأخلاقي.

يبدو من هذه الفكرة أن الرواقية كانت تهدف إلى التخلص من سيادة العالم الخارجي على الإنسان وتحقيق الاستقلال كلية عنه.

كما لا يمكن ونحن نتكلم عن الأخلاق الرواقية أن نهمل نزعتها العالمية واندماج الفرد في الكل،"فمن الطبيعي أن يكون كل إنسان موجودا اجتماعيا،وأن يعيش في مجتمع ذلك هو ما يمليه العقل.غير أن العقل هو الطبيعة الماهوية المشتركة بين كل البشر،ومن هنا فليس ثمة سوى قانون واحد ووطن واحد لكل الناس"[[4]](#footnote-5)،وهو ما يخلق شعورا بالوحدة بين الجميع فيكون الفرد مندمجا داخل الجماعة مرتبطا بها محبا لها كما يحب ذاته،وعندها فقط تتحقق الأخلاق في أعلى صورها.

هذا وتربط الرواقية الفضيلة بالمعرفة والنفس،إذ أن هذه الأخيرة هي التي تكبح طلب اللذة وتسيطر على الانفعالات بقوة العقل الذي يحكم فيها،وهو ما يحقق التحرر الكامل للإنسان،يقول "سنكا"في هذا المجال:"عبوديتك ستتكون خطيرة لكن من السهل تخطيها،إذا كنت ستكُفُ عن أشياء كثيرة ،سوف تطلبها"[[5]](#footnote-6).

**ج-الكسمولوجيا الرواقية:**

كما سبق وأشرنا في خلال الكلام عن الفلسفة الهلنيستية أن الاهتمام بالمسائل الكوسمولوجية والميتافيزيقية كان بقدر ما تقدمه تلك الدراسة من جوانب عملية فقط،فلم تُدرس الفيزيقا ولا الميتافيزيقا لذاتها بل لغايات عملية أخلاقية محضة،وهو ما سنكتشفه مع الرواقية فيما يلي:

كانت مرجعية "زينون"خاصة والرواقيين عامة في فلسفتهم الكسمولوجية تعود إلى الفيلسوف "هراقليطس"بشكل أساسي وبعض من فلسفة أفلاطون وأرسطو،لذلك يمكن أن نلمس نوعا من التوفيق بين هذه المرجعيات لبناء نظرية كوسمولوجية جديدة تحيل كل شيء إلى ما هو مادي،وتنفي بالمقابل كل وجود روحي غير مادي.

يمكن تلخيص ما سبق في المقولة الرواقية المشهورة:"ليس كل شيء سوى أجزاء من كل واحد رائع ومذهل،جسده هو الطبيعة وروحه هو الله"[[6]](#footnote-7)،فكل شيء واحد،ما يعني أن الرواقية تنفي الثنائية الأفلاطونية (المادي-المثالي)،وتأكد في المقابل مادية الله والنفس وحتى العقل،لأن المادي لا يجب أن ينتج إلا من نفس الجوهر،وتكمن النتيجة عند الرواقية في"أن الجسماني لا يمكن أن يؤثر في اللاجسماني،واللاجسماني لا يمكن أن يؤثر في الجسماني،فليست هناك نقطة التقاء ومن ثمة يجب أن يكون الكل جسمانيا بالتساوي"[[7]](#footnote-8).

انطلاقا من هذا التفسير سيكون المصدر الأول كله مادي بالضرورة،وفي هذا عادت المدرسة الرواقية إلى هراقليطس واعتبرت أن النار هي مبدأ كل الموجودات وهي الله،وعلاقته بالعالم تشبه علاقة النفس بالجسم،فكما أن النفس تنتشر في الجسم كله وتملأه،كذلك يحيط الله بالعالم كله ويشمله،وهو منظم الكون لأنه يمثل العقل المطلق،ولأنه كذلك فإن العالم خاضع للضرورة،أي أنه يسير وفق مبدأ العلة والمعلول الذي يستبعد الصدفة.

هذا وتفسر الرواقية كيف تنبثق الأشياء عن الله وتقول بسيرورة العالم وعودة الأشياء إلى المبدأ الأول،وذلك يكون على النحو التالي:"إن الله يغير الجوهر الناري لذاته أولا إلى هواء ثم إلى ماء ثم إلى تراب ومن ثمة ينشأ العالم،لكنه ينتهي بحريق تعود منه كل الأشياء إلى النار الأولية،وبعد هذا في وقت محدد من قبل يحول الله نفسه ثانية إلى العالم"[[8]](#footnote-9)،وهكذا تستمر العوالم في الدوران إلى الأبد،وبانتهاء العالم الأول يبدأ عالم جديد بنفس خصائص العالم السابق ليس فيه أي اختلاف.

**د-مشكلة النفس عند الرواقية:**

سنحاول تبيان الفهم الرواقي لمسألة النفس، وهل ستقدم هذه المدرسة تصورا جديدا ؟أم أنها ستعيد فقط ما قاله السابقون عليها؟

إن أول ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو قولهم أنّ المعرفة قائمة في الإدراك الحسي،و أنّ معرفتنا تكون فقط بالموضوعات الجزئية،أما ما يتجاوز الحس كالمواضيع العقلية المجردة فلا يمكن اعتباره معرفة بل هو مجرد وهم فهم"يقيمون كل المعرفة على الانطباع الحسي"[[9]](#footnote-10)،وقد ارتبط هذا المعنى الأخير ارتباطا وثيقا بالنفس ذلك لأنهم كانوا "يطلقون اسم الحسّ على ثلاثة أشياء:التيار المنبعث من الجزء الحاكم في النفس(أي العقل)إلى أعضاء الحس،ثانيا:الإدراك الحاصل عن طريق الحواس، ثالثا:العضو الحاس"**[[10]](#footnote-11)** .

و إن كان هذا القول الأخير يشير إلى أن الحس هو منبع المعرفة ،إلا أنه اشتمل كذلك على معنى مهم و هو ذلك المرتبط بالجزء الحاكم في النفس؛أي العقل الذي يقوم بعملية الحكم على الأشياء و تحديد المعرفة،لذلك كانت النفس أرقى الأشياء الموجودة في الطبيعة لاشتمالها على طبيعة الألوهية "والواقع أنها قَبَسٌ من النار الإلهية التي هبطت إلى البشر عند خلقهم"**[[11]](#footnote-12)**،وقد مثلت هذه النار بالنسبة لهذه المدرسة المبدأ الأول و الأساسي الذي انبثقت عنه جميع الأشياء بما فيها النفس،و هي من طبيعة مادية تشبه الأشياء الأخرى الموجودة في الكون،وهو ما يؤكد أن الرواقية لم تقل بالثنائية التي قال بها أفلاطون،بل قالت أنه يوجد مبدأين لكن كليهما من طبيعة مادية ،وليس أحدهما روحي والآخر مادي.

إلا أن هذه المدرسة تقول بمبدأين آخرين هما المبدأ الفاعل و المبدأ المنفعل و هما يشكلان وحدة فيما بينهما فهم يقولون "ليس كل شيء سوى أجزاء من كل واحد رائع و مذهل جسده هو الطبيعة و روحه هو الله"**[[12]](#footnote-13)**،أما هذا الأخير؛أي الله روح الواحد فهو المبدأ الفاعل ، و مصدر جميع الأشياء التي تنبع منه و تتحل إليه، وفي حين أن المبدأ المنفعل يمثل المادة غير المشكلة و غير المحددة من حيث صفاتها و خصائصها، فهي مادة أولى قابلة للتشكيل و التحرك أيضا بفعل فاعل هو الله،و هو العقل الذي يملك في ذاته صور جميع الأشياء التي يمكن أن تتشكل و هو ما يسميه الرواقيون بالبذور الكامنة.

إن هذه الصفات و الخصائص التي يتميز بها العقل الكلي تتميز بها النفس،فإذا كان الله كعقل منتشر في الكون، فكذلك و بالصورة نفسها توجد النفس في الجسد،و هي موجودة فقط في الإنسان و الحيوان أما النبات فليست له نفس"وفي الحيوانات هناك نفس تتجلى في قوى الإدراك،أما في الموجودات البشرية فيوجد عقل"**[[13]](#footnote-14)**،لذلك تميز الإنسان عن جميع الحيوانات الأخرى غير المالكة للعقل، و ترتقى نفسه أكثر بمدى ممارسته للفضيلة.

1. فريدريك كوبلسون ، تاريخ الفلسفة اليونانية المجلد الأول، اليونان و الرومان،ص ص509-510. [↑](#footnote-ref-2)
2. نفسه ،ص113. [↑](#footnote-ref-3)
3. المرجع السابق،531. [↑](#footnote-ref-4)
4. المرجع السابق ،ص 534. [↑](#footnote-ref-5)
5. نفسه ،ص533. [↑](#footnote-ref-6)
6. نفسه،ص 519. [↑](#footnote-ref-7)
7. ولتر ستيس،تاريخ الفلسفة اليونانية،ص222. [↑](#footnote-ref-8)
8. المرجع نفسه،ص222. [↑](#footnote-ref-9)
9. - فريدريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة اليونانية ،ص517. [↑](#footnote-ref-10)
10. - ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة اليونانية ،ص173. [↑](#footnote-ref-11)
11. فريدريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص525. [↑](#footnote-ref-12)
12. المرجع نفسه ،ص519. [↑](#footnote-ref-13)
13. نفسه ،ص525. [↑](#footnote-ref-14)